الفصل الرابع

استخدامات الذاكرة

إنها هي التي كانت تسير بخطىً رشيقة، حافية القدمين، على الأرض المضطربة لمعتقل (تريبلينكا)، هناك عند آخر محطة للقطار، ذلك المكان الذي يتم فيه إنزال المسافرين ليقطعوا المسافة التي تفصلهم عن غرفة الغاز، سيراً على الأقدام..

نعم كانت هي. لقد رأيتها عام ١٩٣٠ في محطة (كونوتوب Konotop)، عندما اقتربت من عربة القطار السريع، وكانت بشرتها سمراء داكنة من شدة العذاب، ورفعت إليّ عينيها الرائعتين، وتكلّمت بصمت، لقد تكلمت بشفتيها فقط: "أريد خبزاً..."

فاسيلي غروسمان، العذراء

obeikandl.com

لا تقديس ولا تدنيس

في تلك المرحلة الانتقالية التي تسجّل نهاية قرن وبداية آخر، ينهمك الأوروبيون، وبشكلٍ خاص الفرنسيون منهم، بممارسة طقوس معينة، ألا وهي تقديس الذاكرة. إنهم يشعرون بالحنين إلى ذلك الماضي الآخذ بالابتعاد عنهم إلى ما لا رجعة. وفي محاولة يائسة منهم للإبقاء عليه حياً، ينغمسون بتعظيم رفاته، عاكفين على التضرّع عن طريق ممارسة طقوس معينة. و بتنا نشهد كل يوم، حفل تدشين لمتحفٍ في أوروبا، أصبحت الأنشطة التي كانت تعتبر في الأمس القريب ذات نفع، موضع تأمل اليوم: البعض يتكلّم عن متحف "المعجنات المرقوقة" هنا، و"قطب الحمار" هناك... أحداث كثيرة بارزة يتم إحياؤها كل عام، مما دعانا للتساؤل بشيء من القلق هل بقي لدينا ما يكفي من الأيام الشاغرة لأن نشهد أحداثاً جديدة من أجل إحياء ذكراها في القرن المقبل...

إن هذا الانشغال في سجلات الماضي لا يمكن اعتباره أمراً عفوياً، بل يجب تفسيره. إن تبجيل الذاكرة لا يخدم دوماً القضايا الإيجابية، وهذا لا يثير دهشتنا، ويذكر ذلك "جاك لوغوف **Jacques Le Goff**""لقد بلغ إحياء ذكرى الماضي أوجَهُ في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية [1]". ويمكننا أيضاً إضافة روسيا التي كانت تحت إمرة ستالين، إلى هذه اللائحة؛ مما لا شك فيه أنه تمّ اختيار أحداث هذا الماضي بعناية، ولكنه يبقى ماضياً يجيز إشباع الغرور الوطني، والتعويض عن الإيمان الفكري الآخذ بالتداعي. هذا الخطر لا يتهدد دول أوروبا الغربية ذات النظام الديمقراطي؛ فهل نعتبره مؤشّراً لسلامة هذه الدول السلمية، التي لحسن الحظ، لا تشهد أحداثاً، في حين أن التاريخ يتجدد بشكلٍ يومي في يوغسلافيا؟ من يفكّر في العيش فيها؟ هل هو حنين لعصر انقضى، حيث كانت هذه الدول العظمى هي المهيمنة على العالم بأسره؟ أو أننا يجب أن نغتبط للفرصة التي نمنحها للأجيال الجديدة للاستفادة من تجارب أجدادهم؟

إننا للأسف، نادراً ما نحصل على التأثير الإيجابي الذي نبتغيه من إحيائنا للماضي. شتان ما بين الأمرين. ولنأخذ مثالاً عن ذلك من فرنسا نفسها، حيث لم

ينقضِ أسبوع واحد خلال السنوات الأخيرة، دون أن تبث إحدى قنواتها الفضائية تحقيقا مصوراً، أو فيلماً وثائقياً، أو فيلماً درامياً، أو نقاشاً حول الحرب العالمية الثانية، فتعرض فيها الأعمال البطولية لهؤلاء أو أولئك، أو ارتقاء النازية، أو اضطهاد وإبادة الشعب اليهودي. مع أنه وخلال هذه السنوات نفسها حصل حزب اليمين المتطرّف الذي يناصر علناً المذهب العرقي، ويحتمي جزئياً بالمشروع النازي (دون أن يشارك الأهداف التي تنادي بالإبادة)، قد حصل هذا الحزب على ١٥ ٪ من أصوات الشعب الفرنسي، و حتى أنه في بعض الأحيان، حقق الغالبية العظمى. والأمر مشابه في بلدان أوروبية أخرى. ويساورنا الشك هنا، أو كما كتب المحلل الأميركي "فيليب غورفيتش **Philip Gourevitch**"بشأن متحف القرابين في واشنطن، "ألا يعتبر إقحامنا في صميم الهمجية علاجاً ضدها[2]؟".

لقد أدهشني غياب ذلك الأثر التلقائي أثناء فضيحة "كلوس باربي **Klaus Barbie**" المتهم بجرائم ارتكبها ضد البشرية. ولأول مرة في تاريخها، تقيم الحكومة الفرنسية دعوى مماثلة، يكون خصمها هو قائد الجستابو (المخابرات الألمانية) في مدينة ليون الفرنسية. فالهدف الرئيسي لم يكن معاقبة فرد على الأعمال الوحشية التي ارتكبها قبل أربعة عقود، بقدر ما كان تربية للشعب وتذكيراً له بالأهوال والفظائع التي تقود إليها سياسة التمييز العنصري. لقد احتلت هذه القضية صدر صفحات الصحافة، كما أنها كانت محور حديث الشارع، والخطابات العامة، فالكل كان معنياً بهذه التربية الفاضلة. ومع ذلك وأثناء انعقاد جلسات هذه المحاكمة، شهدت شوارع مدينة نيس الفرنسية في حزيران من عام ١٩٨٧، مصرع عامل بسيط من أصل تونسي، قامت عصابة من الشبان بضربه حتى الموت، ولدى إلقاء القبض عليهم، صرّحوا قائلين: " نحن أناس نؤمن بالتمييز العرقي، إننا لا نحب العرب". حتى أن والد أحدهم كان يردد على الملأ أنه كان مقتنعاً بفعلة ولده، وأنه يؤيّد دوافعه.

وبالتأكيد فإن فرنسا ليست وحدها المتّهمة باحتواء هؤلاء "الفاشلين" في فرنسا. وعلى الصعيد العالمي، وفي الوقت الذي يتم فيه تداول المعلومات بالشكل السريع الذي نشهده، وفي الوقت الذي يندد فيه كل العالم بأشكال الشر، فإن هذا الشر لم

يتوقّف عن إحداث التخريب والدمار. والقضية التي أريد أن أتناولها هنا، أنه لا يمكن اعتبار الذاكرة بحد ذاتها، على سبيل التعميم لا الحصر، أنها أمر جيد أو سيء. فالفوائد التي يمكن أن نجنيها قد يتم تجميدها في يوم من الأيام، أو حتى إفسادها. فكيف يتم ذلك؟ أولاً بالشكل نفسه الذي تتخذه ذكرياتنا عندما تبحر بين مهلكتين متكاملتين، ألا وهما التقديس، ويسمى أيضاً العزل الجذري للذكريات، والتدنيس أو تمثيل الحاضر في الماضي بطريقة تعسفية.

إن التقديس لأي حدث ماضٍ لا يلغي فردية هذا الحدث. والمثال على ذلك هو إبادة يهود أوروبا على يد النازية. فإذا جاء وصفه على لسان البعض أنه حادثة فريدة ونوعية، فهذا أمر شرعي، يكفي أن نذكر المستوى الذي رافق هذا التقييم. أما على صعيد القيم، فلكل إنسان قيمته، وعندما يرتفع عدد الضحايا في نظام سياسي ما إلى المليون، فمن العبث عندئذٍ، إذا لم نقل أكثر من ذلك، ترتيب الضحايا وفقاً للمراتب الاجتماعية، خاصة فيما يتعلّق بإبادة اليهود، وكما تقول إحدى شخصيات "وودي آلن **Woody Allen**"التي بلغ منها اليأس أقصى درجاته، "لقد وُجدت الأرقام القياسية من أجل تحطيمها". فمهما كانت طبيعة الجرائم التي من هذا النوع، فإنها إذا تجاوزت حداً معيناً، تلتقي كلها في الفظاعة والبشاعة التي تثيرها من جهة، وفي الإدانة المطلقة التي تستحقها من جهة أخرى. وهذا الكلام ينطبق أيضاً، من وجهة نظري الشخصية، على إبادة شعب الهنود الحمر الذين هم سكان أميركا الأصليون، وعلى استعباد الأفارقة، وعلى أهوال (الغولاغ)، وفظائع المعتقلات النازية. فمهما بلغ تباين العرق أو الجنسية أو الثقافة، تبقى للشعوب حياتها وكرامتها التي يجب الحفاظ عليها، ولا فرق في هذا بين رجل وامرأة، بين طفل أو شيخ. إن إعدام شعب كامل لا يقل فظاعة وقبحاً عن إعدام مجموعة من البشر، الذين اخترع أجدادهم دين التوحيد ودين الكتاب[1].

(١) لا يقل فظاعة وقبحاً عن إعدام مجموعة من البشر، أصحاب رسالة سماوية ويؤمنون بدين التوحيد (المترجم).

إننا نميل دوماً إلى إضفاء صفة المبالغة على الأعمال التي تخصنا بشكل مباشر. فكل فرد فينا يطلق أحكامه من وجهة نظره الشخصية، رافضاً الخروج عن مركز دائرته، ويعتبر أن ما يصيبه هو أهم من أي شيء آخر. فعلى سبيل المثال يقول الأديب الياباني "كينزابورو أو **Kenzaburo Oe**" الحائز على جائزة نوبل للآداب، لدى إثارته لموضوع القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما: "هذه التجربة هي الأكثر وحشية من بين كل التجارب التي تعرّض إليها الإنسان في قرننا"، ويضيف "إنها الهذيان الأسوأ في القرن العشرين"، إلخ..[3] إن الاستفسار عن النوعية لا يتعلّق بالوقائع، حيث أن تفرّد كل حدث من الأحداث بخصوصيته، هو أمرٌ حتمي ولا يحتاج إلى مطالبة. أما ما هو نوعي، ويستحق الاستيضاح فهو معنى الحدث. ولقد تيقنّا أين تكمن فردية الحادث الذي أودى بحياة الشعب اليهودي على يد النازية، لقد استهدف الإعدام المنظّم شعباً ينتمي للهوية الأوروبية عبر العصور.

هذه النوعية التي تمّ إنشاؤها من خلال المقارنات العديدة، ومن خلال التسجيل التاريخي الدقيق، يمكن أن تأخذ معنى آخر، ألا وهو التقديس. عندما يقدّس المرء إفناء الشعب الذي ينتمي إليه فذلك يُعتبر خطوة مذهلة؛ ولكن هذه المعادلة الجديدة بين ما هو مقدّس وما هو نوعي لا تتم تلقائياً. ويعتبر التقديس من ناحية المبدأ، كعملية اقتطاع، أو تنحية، أو منع لمس (أحياناً بالكلمة، خاصة إذا كان الاسم الشائع هو تعبير مثل "إبادة الجنس"، أو "الشمولية"). وحيث إن الأحداث الماضية هي أحداث فريدة، وأن لكل حدث معنى نوعي خاص به، هذا لا يعني أبداً عدم ربطها ببعضها، بل على العكس. فالنوعية لا تفصل بين حدث وآخر، بل تربط بينهما. وكلما كثرت هذه الروابط اتخذت الواقعة طابع الفردية.

وإذا اعتبرنا بعد أن تعرفنا على هذا المعنى الجديد، كون حادثة إفناء اليهود فردية، مع افتراضنا أنها لا تتصل بأي حادث آخر سواء كان ينتمي للماضي أو الحاضر أو المستقبل، فإنه يحق لنا التنديد بمحاولات المزج المنتشرة في كل مكان، وتحريم محاولات استخدام الفهم الجاهزة، فالعبارات مثل ("لا يمكننا إدراك"، "لا يمكننا تفسير"، "لا يمكننا تمثيل")، تعني في الحقيقة (" يجب ألا...")، ولكننا نمتنع

في الوقت نفسه عن إعطاء الدروس لباقي البشر، وعن "تزويدهم بأية خدمة". ويظهر لنا التناقض جلياً عندما نؤكد في آنٍ واحد، ضرورة استخلاص العبر من الماضي، مع التأكيد أنه لا يتصّل بالحاضر، فما يُصنّف تحت شعار المقدسات لا يمكن أن يحقق لنا الفائدة المرجوة في وجودنا الحاضر. وإذا أردنا عزل الحدث الماضي عن أي شيء، فإننا لا زلنا قادرين على الاحتفاظ به في ذاكرتنا وعلى التصرف بموجب ذلك، ولكن هذا العمل لن يقودنا إلى التعمّق في فهم الطبيعة البشرية أو مصيرها.

ويقف الماضي حينئذٍ حائلاً دون فهمنا للحاضر، فبدل من أن يقودنا إليه، يصبح ذريعة لإعاقتنا عن الحركة. وفي كتابه الذي تناول موضوع إبادة الشعب الراوندي[4]، يروي "غورفيتش" أنه توجّه إلى واشنطن في ربيع عام ١٩٩٤، لحضور المؤتمر الصحفي المنعقد في البيت الأبيض. وبما أن الحكومة الأمريكية اختارت عدم التدخّل في شؤون راوندا، فقد آثر كل الحضور اللجوء إلى المراوغة اجتناباً للخوض في الموضوع. وبمحض الصدفة، ونتيجة لتقارب الأمكنة، وجد "غورفيتش" نفسه ذات يوم أمام متحف "القرابين"، حيث كانت الشعارات معلقة هنا وهناك، وعليها العبارات التالية: "لا نريد ذلك بعد اليوم"، "لنتذكّر دوماً"، "يجب ألا ننسى أبداً". ولكن كل هذه اللافتات التذكيرية لم تمنع من ممارسة تلك الأعمال التي تندد بها هذه الشعارات، ولم تحث على التراجع عنها، خاصة أنها كانت تُقترف بحق الشعب الراوندي في نفس زمان انعقاد المؤتمر الصحفي؛ بل إنها على العكس، قد ساهمت في تدعيم هذه الأعمال الشنيعة بحق هذا الشعب.

وفي شهر كانون الثاني من عام ٢٠٠٠ اجتمع حكام عددٍ من الدول في ستوكهولم، إحياءً لذكرى إبادة الشعب اليهودي؛ ولم يفكر أحدهم بانتهاز تلك الفرصة ليثور، وعلى الملأ (كما فعل دافيد روسيه قبل خمسين عاماً، وكما كان مطلوباً منهم في العريضة)، إذاً لم يثور أحدهم ضد المعاملة القاسية التي يتكبدها شعبه على يد نظام شمولي آخر، وكان الموضوع يتعلّق في هذا الظرف، بكوريا الشمالية. ففي هذا البلد، كما هو مذكور في العريضة، كانت العشرات من معسكرات الاعتقال تُقام كل يوم، مخلفّة وراءها عدداً كبيراً من الضحايا يتراوح بين المليون إلى ثلاثة ملايين كانوا قد قضوا نتيجة الجوع خلال السنوات الخمسة المنصرمة.

ومن جهة أخرى لا يكفي أن نحذّر من أعمال التقديس ونلفت النظر إلى نتائجها؛ فالعملية المعاكسة لهي أشد خطورة، إننا عندما نلجأ لامتهان الأحداث الحاضرة ونمثلها بأحداث الماضي، فإننا نُفقِدها كل معانيها الخاصة بها. وتتحوّل أقصى أعمال الشر درجة، التي حدثت في القرن إلى سلاح بلاغي؛ ولكن في كل مرة يحصل ذلك، نتوانى عن تقصّي جذور هذا الشر ومطابقته مع هويته؛ أما الأمر الأكثر وبالاً، فيقع عندما نسيء فهم معاني الوقائع الجديدة. فالشر الكامن في المعتقلات، كما قال "روسيه"، لا يختلف عن أعمال الشر الأخرى التي اقترفت بحق البشرية من حيث شدته، ومن حيث معانيه فحسب، والمقابر الجماعية في أوشويتز وكوليما خير شاهد على ذلك، وهي تكشف حقائق الفكر الجديد والبنية السياسية المعاصرة.

إننا لدى استخدامنا كلمة "النازي" كتعبير مرادف لكلمة "وغد أو سافل"، فإننا نضيّع عندئذٍ كل العبر التي استخلصناها من أوشويتز. إن شخصية هتلر، بشكل خاص، تصلح لجميع الأغراض، ونجده في كل مكان - في حين يُفترض أن تكون إبادة اليهود حدثاً فريداً لا يتكرر. ففي عام ١٩٥٦، اكتشفت الحكومات الغربية عودة لظهور شخصية هتلر، متمثلة بالرئيس جمال عبد الناصر، واعتبرت أن تأميمه لقناة السويس عملاً طائشاً، نتج عن تصرف أرعن من جهته. وأخذت مصائب الرئيس الراحل تتوالى منذ ذلك الحين. فالحكومة الأمريكية تحب أن تطلق هذه التسميات على أعدائها من أجل ضمان دعم الأسرة الدولية غير المشروط لها؛ كما أنها تعتبر الرئيس صدام حسين هتلراً جديداً؛ والرئيس ميلوزيفيك هتلراً آخر. ويمثل هؤلاء المتهمون تحت أضواء الشعوب الغربية، ولكن بنسب نجاح متباينة.

وفي منطقة الشرق الأوسط، يتم تصوير الرؤساء العرب - بدءاً من الرئيس جمال عبد الناصر وصولاً إلى الرئيس ياسر عرفات- على أنهم عريف أول ذو شارب؛ وتارةً أخرى نجد الصحافة العربية تصف أحد رجال الدولة الإسرائيلية على أنه يتمتع بعقلية محارب على غرار هتلر. ويمكن لهذه الشتيمة أن تتردد داخل كل معسكر؛ "هناك موقع أمريكي على الإنترنت يصوّر السيد باراك (رئيس الوزراء الإسرائيلي)، بملامح هتلر، مرتدياً الزي النازي، وممسكاً بالعلم الفلسطيني، وهو

يردد: "سوف أنهي العمل أيها الرئيس هتلر[5]". وفي بعض الأحيان، يظهر التناقض على أشده، حيث يترافق التقديس مع التدنيس، على غرار مسؤولي متحف القرابين في واشنطن، عندما حالوا دون زيارة السيد عرفات لهذا المتحف، بداعي أنه "يعيد تجسيد شخصية هتلر [6]".

وبالنتيجة، فإن صياح سرية الأمن العام والوحدات العسكرية التي نسمعها بدقة في شوارع باريس منذ شهر أيار ١٩٦٨، لم يقم أحد بتبريرها، تماماً كالتصريحات التي صدرت مؤخراً عن رئيس الرتل الشيوعي الروسي "غونادي زيوغانوف **Guennadi Ziouganov**"ضد الرئيس "إلتسين **Eltsine**"وأتباعه، فقد انطوت هذه التصريحات على اتهامهم بممارسة الإبادة الجماعية ضد الشعب الروسي: "لا يمكن مقارنة القنابل أو معتقل أوشويتز بالمحرقة التي أشعلها الإصلاحيون على أراضينا[7]". إن هذه الإسقاطات الانفعالية الصادرة عن الماضي والمسلطة على الحاضر لا تلقي أي ضوء على هذا الحاضر، بل إنها تعيق عملية إدراكه. فعندما نقول أن الرئيس "بوتين **Poutine**"الرئيس الروسي الجديد، يحذو حذو ستالين، فإن ذلك يمنعنا من معرفة من كان ستالين، وكيف سيكون بوتين.

obeikandl.com

في خدمة المصلحة

يمكننا التأثير على الذاكرة وجعلها عقيمة من حيث الشكل؛ إذ إنه تمّ تقديس الماضي فلم نعد نملك منه سوى الاسم؛ وبسبب امتهاننا له، بتنا نفكر بكل شيء وبأي شيء. بالإضافة إلى أن الوظائف التي نحمّلها لهذا الماضي ليست كلها جديرة بالاحترام.

إن استرجاعنا للماضي أمر لا بدّ منه من أجل تأكيد هويتنا، سواء كأفراد أو كجماعات. إذ يمكننا التعرّف عليهما من خلال إرادتهما في الحاضر، ومشاريعهما المستقبلية؛ ولكنهما، أي الفرد أو الجماعة، لا يستطيعان الاستغناء عن هذه المرحلة الأولى لإحياء الماضي. فإذا فقدنا شعورنا بالانتماء من خلال امتلاكنا للهوية الشخصية، فإننا سنشعر بأنفسنا مهددين في شخصنا بعد أن سيطر علينا العجز. لذا فمطالبتنا بامتلاك الهوية هو أمر شرعي، فالفرد بحاجة ماسّة لمعرفة من هو، وإلى أية مجموعة ينتمي. إنه بحاجة لأن يعرف إذا كان مذهبه هو الكاثوليكية، أو أنه من سكان منطقة بيري (**Berry**)في وسط فرنسا، أو أنه فلاح، أو شيوعي، كل ذلك يعرّفنا بوجودنا، فنحن لسنا نكرة، ولن يبتلعنا العدم. فإذا تلقينا فجأة، سراً جديداً عن ماضينا، يضطرنا ذلك لأن نعيد التفسير بشكل جذري بالصورة التي كانت في أذهاننا عن أقربائنا أو حتى عن أنفسنا، عندئذٍ لن يصيب الاضطراب جزءاً واحداً منفرداً من شخصنا، بل إن هويتنا بالكامل هي التي ستضطرب. أما إصابات الذاكرة العفوية، فهي لا تقل خطورة. من منّا لم يصادفَ قط في حياته إنساناً مصاباً بمرض "الزهايمر" **Alzheimer**، المرض الذي يتسبب لصاحبه بفقدان الذاكرة، فيفقد المريض نتيجة لذلك، هويته وينساها.

لا مجال للاعتراض على تلك الحاجة التي تحثنا على امتلاك هوية خاصة بنا، مع الاعتقاد أن الأمر سيكون أفضل فيما لو كانت هذه الهوية مرنة ومتعددة، وليست فريدة وصارمة. بيد أن البشر كالجماعات يعيشون وسط بشرٍ و جماعات آخرين، لذا فلا يكفي اعتراف كل فردٍ فينا بحق الآخر في العيش؛ إذ يجب معرفة كيف تكون

وسيلة الدفاع عن الذات مؤثّرة على وجود باقي البشر من حولنا. فالأعمال التي تدعم هوية الفرد وهوية الجماعة قد تعود بالفائدة عليهم، ولكنهم لا يملكون في داخلهم أية قيمة أخلاقية؛ لأن سياسة الهوية لا تختلط بخُلُق الغيرية.

لنعد بذاكرتنا الآن إلى الأدوار الهامة التي تم التعرّف عليها من خلال الروايات التاريخية. فمن أجل تقييم الشخصية الحاضرة التي تحيي شخصية من الماضي، لا بد لنا أن نتساءل إلى أية شخصية أو أية مجموعة شخصيات تاريخية تعود، ومع من تتطابق.

لا يوجد هناك أي تأكيد لأن نختار اتباع مَثَل الشخصيات الإيجابية؛ فالأشرار أيضاً يمكنهم أن يلهمونا، شريطة أن نجد مصلحتنا من خلالهم. ففي كل جريمة، هناك المجرم والضحية؛ ولا يوجد أي ضمان لكون من يُلِم بأحداث الماضي يحيط بقضية كل الضحايا، بدلاً من قضية كل القتلة. لقد حذرتّنا "جيرمين تييون" عندما قالت: "إن العالم المجنون الذي أوجده النازيون كان مُعَداً ومناسباً لحث مخيلة الساديين المازوشيين على الابتكار[8]". حيث يمكن للقصة التي تروي مذبحة ما، أن تثير تعاطف، إلى جانب الشعور بالاستمتاع لدى إنسان سادي(١) أو رنّاء(٢)، إن هذه الأمور ليست غريبة عن الطبيعة البشرية. وذكّر "جورج بنسوسان **Georges Bensoussan**"[9] مؤخراً أن جريمة ذبح اليهود في (كيلس **Kielce**)، التي ارتكبت في بولونيا عام ١٩٤٦، قد استلهمت عنفها من المجازر التي ارتكبت في أثناء الحرب، فالعبرة التي تم استخلاصها من الحرب هي سهولة ارتكاب جرائم الذبح. لقد شهدنا الطريقة الغريبة والمتناقضة التي من خلالها كان هتلر يتذكر مذبحة الشعب الأرمني، وكان يأمل أن ينسى العالم مذبحة اليهود بنفس الطريقة. وراود ستالين نفس الشعور والتفكير عند توقيعه على أحكام الإعدام التي صدرت بحق رفقائه السابقين من البلشفيين (مولوتوف وإيغوف)، كان يقول: "من سيذكر أولئك الرعاع بعد عشر أو عشرين سنة؟ لا أحد. من يذكر اليوم أسماء أشراف الروس من طبقة النبلاء الذين تخلّص منهم "إيفان " المخيف؟ لا أحد [10]". ولحسن الحظ، فقد أخطأ كل من

(١) الذي يتلذذ بإيذاء الآخرين (المترجم).
(٢) الذي يجد لذة جنسية في مشاهدة علاقة بين رجل وامرأة (المترجم).

"ستالين" و"هتلر" بتوقعاتهما، فذاكرة الشعوب تغلبت على النسيان الذي حاولا فرضه؛ إلاّ أن الشعوب، في هذه الذكرى، وللأسف، تتقمّص شخصية الجلاد متناسية الضحية.

لنفترض الآن أننا اخترنا الوقوف إلى جانب "الخير". قد نكون ضحايا هنا ونصبح جلادين هناك - الأمر سهل وفقاً لاختلاف الظرف- يقول "بريمو ليفي": "يمكن للمظلوم أن يتحوّل إلى باغٍ وجائر. وكثيراً ما كنا نشهد حصول مثل هذا الأمر[11]". وتذكّر "مارغريت بوبر نيومان": "إن الألم الذي يصيب إنساناً ما لا يرتقي به إلى المراتب العليا ". أما "ألبير كامو **Albert Camus**" (١) فقد كتب في وقت مبكّر جداً عن الجيش الفرنسي الذي عاش في صراع مع نفسه، ولعب دورين متناقضين من خلال الحرب العالمية الثانية من جهة، وحربه في الجزائر من جهة أخرى: " الأمر موجود هنا وهو واضح وفظيع مثل الحقيقة، لقد اقترفنا في حربنا ضد الشعب الجزائري جرائم بشعة كنا نلوم الألمان عليها [12]". في عام ١٩٥٨ وبينما كانت الذكريات المؤلمة للحرب العالمية الثانية بفظاعتها وآلامها لا تزال عالقة في أذهان الشعب الفرنسي، بدأ استخدام العنف ضد شعب الجزائر ينتشر على يد الجيش الفرنسي. كتب "سارتر **Sartre**"بدوره في تقريره الذي جاء بعنوان "المسألة" لـ "هنري آليغ **Henry Alleg**": "كانت أصوات الفرنسيين تتعالى من القلق والألم في عام ١٩٤٣ في حي (لوريستون)، على مسمع من الشعب الفرنسي برمته، ولم تكن نهاية الحرب قد لاحت بعد في الأفق، الكل كان رافضاً التفكير بالمستقبل؛ أمر واحد على كل حال كان مستحيلاً، أن نكون نحن الفرنسيون سبباً في جعل الآخرين يصرخون من الألم. إن كلمة مستحيل غير واردة في القاموس الفرنسي، ففي عام ١٩٥٨، كانت طرق التعذيب الوحشية تمارس بشكلٍ مستمر ومنظّم بحق الشعب في العاصمة الجزائرية، والعالم كله كان على دراية بذلك [..] ولكنه آثر الالتزام بالصمت المطبق[13]".

إذاً فكلمة مستحيل غير واردة في القاموس الفرنسي. ولكن لنبتعد عن الاستهانة بالمهمة، فالعجز عن استخلاص العبر من الماضي حتى عندما يكون هذا

(١) وهو كاتب فرنسي ولد في الجزائر (المترجم).

الماضي واضحاً جداً، لا ينحصر بالفرنسيين وحدهم. بناءً على ذلك، يمكن أن ندرج حكمة عامة، على طريقة الباحثين في علم الأخلاق القدماء: نحن لا نتعلّم شيئاً من أخطاء الآخرين. وعندما أستعمل ضمير "نحن" فإنني أقصد به الكيان الجماعي بأكمله، الشعب، أو الطبقة، أو المجموعة التي ننتمي إليها، أو نتشبّه بها. وبالرجوع إلى المثال الذي أوردتُ عن الفرنسيين، فإني أكرر أنهم لم يتعلموا الكثير من روايات الجرائم التي اقترفها الألمان في أثناء الحرب. فإذا استطاعوا أن يتحولوا وبكل سهولة من ضحايا للألمان في عام ١٩٤٤، إلى جلادين في عام ١٩٥٨، فهذا يوضّح أنهم لم يكونوا يؤيدون الجلادين في عام ١٩٤٤.

قد نكون ضحايا الأعمال الإجرامية القديمة، ونصل إلى نتيجة أن هذا الماضي يسمح، بل ويفرض علينا اتخاذ موقف عدواني في الحاضر. وهذا يتجلّى على كل حال، في حالات الانتقام؛ فالألم الذي أذاقنا إياه البعض يشرّع لنا فرضه على الآخرين، مع فارق بسيط وهو أن الضحية السابقة تحولت إلى مضطهِد، أما الضحية الجديدة فلا صلة لها بالعدو الجائر القديم. وتتكرر مأساة الأهل الذين يقومون بتعذيب أبنائهم، بعد أن عانوا بدورهم في مرحلة طفولتهم المبكرة من آباء كانوا يضربونهم أو يغتصبونهم. فبعد مضي عشرين أو ثلاثين أو أربعين عاماً على تحمّل الإهانة، ودون إدراك أن تصرفهم هذا إنما ينم عن تعويض لتلك الإساءة، وأنهم بعد أن وصلوا إلى مرحلة الشباب، فإنهم يفرضون الآلام التي عانوا منها في طفولتهم على أطفالهم بالذات.

قد نجد موقفاً موازياً لتلك الحالة على صعيد السياسة الممارسة في أيامنا هذه على يد الإسرائيليين. ودون الدخول في تفاصيل قام ببحثها مؤلفون عديدون، نجد أن ذكرى مذبحة اليهود هي الموضوع المتداول في ذاكرة هذا الشعب أكثر من غيره على الإطلاق؛ بيد أننا لا يمكن أن نصف سياسة الإسرائيليين تجاه جيرانهم الحاليين من العرب، لا سيّما تجاه الفلسطينيين[1]، بأنها لا غبار عليها فيما يتعلّق بحقوق هؤلاء بالعيش على أرضهم وصون كرامتهم. فالتجربة السابقة التي عاشها اليهود لم

(١) أصحاب الأرض (المترجم).

تقدّم العبرة والفائدة إلى الأجيال التالية منهم؛ بل إنها على العكس تُذكّرُ لتبرير سياسة إن لم تكن مطابقة للتي تعرّض لها اليهود، فهي على الأقل تضع فروعهم أو أبناء بلدهم في الدور المعاكس، حيث أصبح الفلسطينيون وكما قال "إدوار سعيد" ضحايا الضحايا [14]". فالموضوع هنا لا يتعلّق بالقضاء والقدر. حيث إن قاضي المحكمة الإسرائيلية العليا "لاندو **Landau**" المطّلع على الماضي الأليم للشعب اليهودي، أصدر قراراً بأنه من العدل ممارسة التعذيب بحق السجناء من الشعب الفلسطيني من أجل حماية الإسرائيليين ضد تصرفاتهم السيئة، ومن أجل إحباط محاولات الاعتداء الصادرة عن هؤلاء "الإرهابيين"(١). وانطلاقاً من الماضي نفسه، ومن فوق هذه الأرض، كان البروفسور "ليبوفيتز **Leibovitz**"، قد استنتج الخلاصة المعاكسة، وتتلخّص بضرورة التصدّي وبكل الوسائل الممكنة، لممارسات العنف بأنواعها. هذان الدرسان لا نقيّمهما بالنسبة لعلاقتهما بالماضي، إنما فقط من خلال قناعاتنا الحاضرة الأخلاقية والسياسية.

إن أعمال العنف المتكررة التي نشهدها في هذه الأيام في الجزائر، تشكّل وجهاً آخر لذلك الموقف، حيث إنها تمارس بين فئتين من الشعب نفسه. إلاّ أن هذا العنف لا يجسّد فقط انسياق مجموعة من الشعب في تيار الجريمة، تلك المجموعة التي تتوارى خلف التزمت الديني وتتخذه شعاراً لها، وهي أبعد ما تكون عن حقيقة الدين، كما أنها لا تجسد وحشية الانتقام، فالمجازر تتّبع بعضها بعضاً. كما أنها تقودنا إلى ماضٍ بعيد إلى حدٍ ما، ذلك الماضي الذي شهد فيه الشعب الجزائري العنف على يد المستعمِر الفرنسي، طيلة المائة وعشرين عاماً. فكانت المجازر التي ارتكبت من خلال الغزو الفرنسي للبلاد، إلى جانب الإهانات المنظّمة في أوقات السلم، والتي تلتها قسوة الصراع الأخير؛ تلك إذاً صدمات نفسية تبقى عالقة في الأذهان، مولّدة لأعمال عنف مماثلة بعد مدة من الزمن، كما يحصل عند الأطفال المضطَهَدين الذين يصبحون مضطهدِين في الكبر. فعندما يقتحم الشر والألم التاريخ، يتعذّر عندها إزالة آثارهما حتى لو زال المسبب الأصلي. ولا تزال جرائم هتلر وأعمال العنف التي لازمت حرب الجزائر تساهم إلى يومنا هذا، بنشر أعمال الشر.

(١) فالمدافع عن أرضه ووطنه أصبح في نظرهم إرهابياً! (المترجم).

موهبة الذاكرة

لدى مراقبتنا لأساليب سوء استخدام الذاكرة، سواء في الشكل أو في الوظائف، فإننا نجد أنفسنا أمام سؤال ملحٍّ: أليس النسيان أفضل من التذكّر؟ لن نجد جواباً بسيطاً ومنسقاً على هذا السؤال، وخاصة في مواقف معيّنة. إن تغطية الماضي في النظام الديمقراطي، هي أمر شرعي ولكنه ليس واجباً. فتذكيرنا الحثيث لأحدهم بالأحداث الأكثر مرارة التي عاشها في حياته، يتضمّن شيئاً من القسوة اللامتناهية؛ فحق النسيان موجود أيضاً. وكتب في هذا السياق "أوفروسينيا كيرسنوفسكايا **Euphrosinia Kersnovskaïa**"في كتاب يحكي فيه مجموعة وقائع، اختتمه بالسنوات الاثنتي عشرة التي أمضاها من حياته في معتقل الغولاغ: "أماه، لقد طلبتِ مني أن أكتب لك حكاية "سنوات التأهيل" التعيسة. لقد لبيتُ لك رغبتك الأخيرة. ولكن ألم يكن من الأنسب نسيان هذه السنوات[15]"؟ وروى "جورج سيمبرون **Jorge Semprun**"في روايته "الكتابة أو الحياة" [16]، كيف أنه وفي وقت من الأوقات، قد نجا بأعجوبة بفضل نسيانه لتجربة المعتقل؛ فعلى الصعيد الفردي. يحق لكل إنسان أن يقرر متى وكيف ينسى.

أما على صعيد الحياة العامة، فلنا الخيار في أن نؤثر النسيان على تذكر الألم. ولنستمع إلى هذه القصة التي يرويها "أميريغو فيسبوسي **Amerigo Vespucci**"مكتشف القارة الأميركية. فبعد عرضه اللقاءات التي تمّت بين الأوروبيين مع سكان البلد الأصليين، والتي انتهت أحياناً بالتعاون، وأخرى بالمجابهة، ينقل لنا أنه غالباً ما تنشأ صراعات دامية بين مجموعات مختلفة من سكان البلد الأصليين. ويتقصّى أميريغو السبب، ويقدم لنا التفسير: "إنهم لا يقاتلون من أجل النزاع على السلطة، ولا من أجل ضم أراضٍ جديدة إلى أراضيهم، ولا يدفعهم أي حسد لا عقلاني، ولكنهم يقتتلون بسبب ضغائن قديمة نشأت منذ الأزل فيما بينهم[17]". إذا افترضنا أن أميريغو كان محقاً فيما يقول، ألا يجدر بنا أن نتمنى لهذه الشعوب أن

تنسى أحقادها لتعيش في سلام، وأن تطفئ نار الضغائن، وأن تسخّر طاقاتها الكامنة في أمور تعود عليها بالنفع؟ ولكن عندها يجب أن نطلب إليهم أن يتغيروا من الأعماق.

أصبح الوقت مناسباً هنا لسرد البنود الأولى من اتفاقية (نانت **Nantes**) التي تم التوقيع عليها في عام ١٥٩٨ . لقد نصّت على وضع حدٍ للحرب الأهلية التي تمزق فرنسا: "لتهدأ نفوسنا، ولنزيل من ذاكرتنا كافة الأمور التي حدثت هنا وهناك في البلاد منذ مطلع شهر آذار ١٥٨٥ وحتى جلوسنا على العرش، بما فيها الاضطرابات السابقة، وكأن شيئاً لم يكن. ولن يجوز ولن يُسمح للنائب العام، ولا لأي شخص آخر مهما كانت صفته، سواء كان من المسؤولين أو من العوام، في أي زمن من الأزمان، ومهما كانت المناسبة، أن يثير تلك الأحداث، أو أن يقيم دعوى، أو يوعز بمتابعتها لدى أية محكمة، أو سلطة قضائية [..]، لنمنع كل رعايانا في أية منطقة من البلد، ومهما كانت مراتبهم الاجتماعية، أن يحيوا الذكرى[18] " ...

وشهدنا في عام ١٨٨١ "بول ديروليد **Paul Déroulède**"مؤسس رابطة الوطنيين، ومن أنصار التسلط العسكري، يهتف من منطق معاكس قائلاً: "هناك من يعتقد أن الحقد يهدأ، ولكن لا! لن يتغلغل النسيان إلى قلوبنا". ودون أن يدري، كان يؤكد بكلماته هذه، مقولة لـ "بلوتارك **Plutarque51**" [19] يقدّم فيها تعريفاً للسياسة "وكأننا ننزع عن الحقد سمته الأزلية والأبدية"- وبتعبير آخر إخضاع الماضي للحاضر. إن استرجاع هزيمة ١٧٧٠-١٨٧١، وصرخات الحرب الصادرة عن كل من "ديروليد وباريس وبيغي **Déroulède, Barrès, & Péguy**"ومناهضون آخرون للنسيان، قد وصلت إلى مسامع القادة؛ لقد ساهموا في إشعال فتيل الحرب العالمية الأولى. وفي نهاية هذه الحرب وجد هتلر الطريق ممهدة إلى إقناع مواطنيه بضرورة الخوض في الحرب العالمية الثانية، مستنداً بذلك على معاهدة فيرساي المخزية. وكانت شعارات مثل "لا صفح، لا عفو، لا نسيان" والتي باتت منتشرة في زماننا هذا، لا تنم أبداً عن التقدم الحضاري.

فإذا كانت استعادة الماضي تقود إلى الموت، فكيف لا نفضّل عليها النسيان؟ ألم يكونوا على حق أولئك الفلسطينيون والإسرائيليون، الذين عبّروا عن قناعتهم أثناء

اجتماعهم المنعقد في بروكسل في شهر آذار من عام ١٩٨٨، عندما قرروا: "لكي نتمكن من البدء بالكلام، يجب طي الماضي ضمن قوسين[20]"؟ فإذا كان الماضي سيؤثّر على الحاضر ويوجهه، فأي الطوائف من بين المسلمين والمسيحيين واليهود ستتراجع عن مطالبتها بحقوقها في أراضي القدس؟ أما في إيرلندا الشمالية، وحتى عهد قريب جداً، أعرب الحزبان المتطرفان عن إصرارهما على "عدم النسيان وعدم العفو"، ولا يمضي يوم إلاّ وتُضاف أسماء جديدة إلى لائحة ضحايا العنف، التي كانت تثير بدورها أعمال عنف انتقامية مضادة. لهذا السبب، بلا شك، وغداة الحرب العالمية الثانية، صرّح أحد كبار زعمائها "وينستن تشرتشل **Winston Churchill**": "يجب أن ننسى أهوال الماضي" - "لقد أغفل" أنه لا يمكن لأحد أن يتحكّم بالنسيان...

ففي حين كانت مجازر الإبادة العنصرية التي اقتُرفتْ في منتصف القرن، بدءاً من مجازر روسيا وانتهاءً بمجازر كامبوديا[1] قد أنجزت باسم المستقبل (حيث أن الشمولية قد أخذت على عاتقها تهيئة نشءٍ جديدٍ بإفناء أولئك الذين لم يتأقلموا مع الوضع الجديد)، فإن المجازر حديثة العهد قد ارتكبت باسم الماضي: في راوندا، أراد شعب (الهوتس **Hutus**) إفناء شعب (التوتسيس **Tutsis**)، من أجل الانتقام من المذلاّت التي لقيها على مدى عشرات السنين المنصرمة؛ أما الحروب التي اندلعت في يوغسلافيا، فقد كانت انتقاماً للمجازر التي ارتكبت في البلاد قبل قرون أو قبل سنوات مضت، والتي راح ضحيتها أناس من الفريقين المتقاتلين؛ وفي الجزائر، أصبحت جرائم اليوم سهلة التنفيذ، وهي سلسلة من جرائم الأمس. إن ذكرى عنف الأمس يرفد عنف اليوم، تلك هي آلية الانتقام.

إن الانتقام في أيامنا هذه لا يظهر للعيان بشكلٍ جلي، ولا أحد يريد أن يحتمي به، ولكن هذا لا يعني أن الانتقام فعل غريب عن البشرية، حتى حين نضفي عليه مظهر العدالة. وهذا يظهر بوضوح في كل مرة نسمع بنبأ مقتل أحدهم. ألا نلحظ

(١) في الهند الصينية (المترجم).

ردود الأفعال العنيفة للأهالي الذين ذهب أطفالهم ضحية الاغتصاب أو الذبح، ألم نسمع عن أسفهم لنجاة المجرمين من عقوبة الإعدام، تلك العقوبة الاستثنائية؟ الأمر مشابه في قضايا مرض الدم الملوث؛ ففي فرنسا، طالب أهالي الضحايا الذين انتقلت إليهم عدوى مرض نقص المناعة (السيدا أو الإيدز) إدانة المسؤولين الإداريين بجريمة القتل، من أجل أن يلقوا مصير الضحايا أنفسهم.

إلاّ أن الاختلاف بين العدالة والانتقام مضاعف. يبدو الانتقام للوهلة الأولى وكأنه ردة فعل فردية صادرة عن فعلٍ فردي مشابه له من حيث المبدأ: قمتَ بقتل ولدي، سأقتل ولدك بالمقابل. أما العدالة، فمهمتها وضع الفعل الفردي أمام القانون؛ إن كتم أسماء القائمين على تنفيذ العدالة (سواء كانوا من رجال الشرطة أو من القضاة) يقابله فضح لهوية المنتقم. فالانتقام مَثُلُهُ كمَثَل الصفح، أمرٌ شخصي؛ أما العدالة فليست كذلك، حيث إن القانون لا يتعامل مع أفراد. ومن جهة أخرى، فالعقوبة ليست مرآةً للجريمة، بل إنها تقاس وفقاً لباقي العقوبات؛ إن العقوبة تتبع نظاماً متكاملاً ولا تأتي على صورة دافع مباشر. إن تدخّل العدالة يُصلِح من شأن تمزّق المجتمع، ويؤكد صلاحية القانون (ما هو مدوّن أو غير المدون كما في الجرائم التي ترتكب ضد الإنسانية)؛ فالقانون لا يعوّض بالضرورة الإهانة التي تلقاها الفرد. ليس من المهم من هذا المنظور أن تكون العدالة قاسية أو لا تكون، المهم أنها موجودة.

أما في الانتقام، فتأتي أعمال العنف على شكل سلسلة لا متناهية: عنف جديد يردّ على عنفٍ قديم مولّداً عنفاً أحدث منه، ويزداد الألم بدل أن يتناقص. الكل قادر على تجسيد هذا القانون من خلال أمثلة قديمة أو حديثة في التاريخ، بدءاً (الأوريستي **Orestie-L**) لـ"إيشيل **Eschyle** [(١)]، انتهاءً بمجازر بلفاست التي اقترفت مؤخراً؛ فالكل يعرف أنه من أجل إخفاء الفأس بين كل من "المونتاغوس **Monta-gus**" و"الكابوليه **Capulets**"[(٢)]؛ يجب في بعض اللحظات العدول عن الانتقام بدلاً من المضي فيه. كما أن للعنف ضرر إضافي آخر، فهو يهدئ من روع مرتكبه ولا يدع له

(١) من المسرحية المأساوية - للكاتب اليوناني (المترجم).

(٢) وهما العائلتان اللتان ينتمي إليهما بطليّ قصة شكسبير، روميو وجولييت (المترجم).

مجالاً للبحث عن جذور الشر في أعماقه. وبذلك يتم الإصلاح الظاهري للقضية على حساب الناحية الخُلُقية. أما العدالة من جهتها، فهي تعمل في مجال التجريد ونزع سمة الفردية، وهذا مأخذ عليها، ولكنها المنفَذ الوحيد للإقلال من حوادث العنف.

والأمر مماثل بالنسبة لعقوبة الإعدام، والتي هي ليست سوى شكل من أشكال الانتقام المشَّرَع، وهي لا تزال نافذة في دول عديدة غير أوروبية، وبشكل خاص في الولايات المتحدة الأميركية. لقد برهنت الدراسات المتكررة أن عقوبة الإعدام هي قصاص بحت، فالقاتل لا بد وأن يموت؛ إنها ليست طريقة للوقاية كما يدّعي أنصارها. وفي مرافعته ضد عقوبة الإعدام، صرّح الكاتب الفرنسي "ألبير كامو Albert Camus"[21] عن الرقم الحقيقي، فمن بين المئتين وخمسين إنسان نُفِذت بحقهم عقوبة الإعدام في انكلترا مع بداية القرن، شهد مئة وسبعون فرداً منهم تنفيذ أحكام إعدام سابقة. بيد أن هذا الاطلاع الأولي لم يغيّر من اتجاه سياستهم! ويبرز من هنا التشابه القائم بين عقوبة الإعدام والثأر الشخصي، وخصوصاً أنه في الولايات المتحدة تتم دعوة العائلات لتشهد تنفيذ العقوبة بذويها القتلة. وليس صدفة أن ينفرد هذا البلد بممارسة هذا النوع من العقوبات، لقد سيطر على دستوره كل من "قانون الأقوى"، و"رفض العدالة الموضوعية"، و"شريعة العين بالعين" (هذا ما كان يُطلق عليه بتحفّظ "غزو الغرب"، وكأن هذه الأراضي الشاسعة لم تكن مأهولة من قبل).

لم تُثْبِتْ عقوبة الإعدام فشلها في قضائها على الجرائم فقط، بل كان لها نتائج سلبية على المجتمع الذي كانت تزاول فيه. فمن جهة، وكأي حادثة ثأر، يَعتقد المجتمع أنه تمّ اقتلاع الشر المتأصّل في شخص الجاني. ومن جهة أخرى، تنكر على المجرم قدرته على إصلاح نفسه، بسبب أنه حكمٌ نهائي وقاطع لا رجعة عنه. وقد رأى (روسو) في هذه "القابلية للكمال" تلخيصاً للطبيعة البشرية، بخلاف الكائنات الحيّة الأخرى، من حيث أن الإنسان قادر على إجراء التغييرات على "طبيعته"، وبملء إرادته. هذا المفهوم هو أساس النظام الديمقراطي، الذي يحترم ويصون استقلالية الفرد؛ حتى بتنا نتساءل بجديّة إذا كان بلدٌ مثل الولايات المتحدة الأميركية، الذي يزاول عقوبة الإعدام على أوسع نطاق، يستحق لقب الديمقراطية!..

إن الحفاظ على ذكرى الألم الذي لحق بنا قد يقودنا إلى ردود أفعال انتقامية؛ وكذلك النسيان، يمكن أن يولّد نتائج وخيمة. فالحياة الانفعالية للفرد تقدّم لنا مقارنة واضحة. وكما هو معروف، يولي التحليل النفسي أهمية مركزية للذاكرة، فالعصاب يتولّد عن اضطراب خاص في الذاكرة سببه الكبت. لقد أبعد هذا الإنسان عن ذاكرته الحيّة وعن وعيه، بعض الوقائع والأحداث التي تعرّض لها في طفولته الأولى، والتي لم يعد يطيق احتمالها. ويُثبت التحليل أن شفاءه يتم عن طريق استعادة الذكريات المكبوتة في اللاوعي. ولكن ما الذي سيفعله هذا الإنسان لدى استدعائه لتلك الأحداث؟ عندما كانت مكبوتة في اللاوعي، كانت ذكرياته نشيطة وتنغّص عليه طمأنينته؛ أما الآن وقد استدعاها إلى الوعي، يمكن له أن يضعها في مكانها المناسب. "لا يكمن هدف التحليل النفسي كما أورد (بيير نورا **Pierre Nora**) في الانغلاق على ذكريات الماضي، بل في محاولة التخلّص منها[22]". أما الحِداد فهو أسلوب آخر لتهميش الذكريات، نحن نرفض للوهلة الأولى تقبّل الحقيقة والخسارة التي ألمّت بنا، ثم ننتقل تدريجياً إلى التغيير من وضع صور الفقيد دون التوقف عن تكريم ذكراه، ويتدخّل عامل الوقت ليخفّف من شدة الألم. بشكل عام، لا مجال لأن نسمح للماضي بتوجيه حاضرنا.

أما فيما يتعلّق بالحياة العامة، فإن ذكريات الماضي لا تبرره. ولكي نستفيد من هذا الماضي، يتطلّب منّا ذلك القيام بإجراءات خاصة لتحويله وتسخيره لمنفعتنا (تعود الكلمة للعالم الألماني فرويد **durcharbeiten**)، والتحويل هنا يكمن في الانتقال من الحالة الخاصة إلى الحكمة العامة، إلى مبدأ العدالة، والمثل الأعلى السياسي، والقاعدة الخُلُقيّة، وكلها يجب أن تكون شرعية في ذاتها، لا لكونها صادرة عن ذكريات عزيزة على قلوبنا. إن تفرّد واقعة ما لا يلغي العبرة العامة التي نستخلصها منها. وكدليل على ذلك[23]، يعتبر إنقاذ يهود بلغاريا أثناء الحرب العالمية الثانية حادثة فريدة من نوعها، لا مثيل لها؛ ولكنها تبقى ذات مدلول ومعنى موجّه للبشرية جمعاء، في الأمس كما اليوم. يمكن لذكرى الماضي أن تخدمنا إذا أتيحت للعدالة السيادة على أوسع نطاق، متجاوزين بذلك إطار المحاكم - هذا يعني خضوع الحالة

الخاصة للمبدأ المجرد، فالعدالة الجنائية تنشأ كما رأينا، عن تعميم الإهانة الخاصة، ولهذا السبب فهي تتجسّد في القانون الموضوعي، وتُطَبَّق من قبل حاكم غريب، وتُنَفَّذ على يد هيئة المحلفين الذين يجهلون كل شيء عن شخصية الباغي وعن الضحية. عندئذٍ تتحقق العدالة، والأمر لم يأتِ بالصدفة إذا لم تطبق العدالة من قبل الضحية، وهذا بالضبط ما يسمى بنزع الفردية، إذا أمكننا قول ذلك، والذي يسمح بسيادة القانون.

فالاستخدام الأمثل للذاكرة هو الذي يخدم قضيةً عادلة، وهو ليس الذي يكتفي باستعادة الماضي. وخير مثال على ذلك الدعوى التي أقامها كل من"فيكتور كرافتشينكو **Kravtchenko Viktor**"و"دافيد روسيه"، لقد تغلبوا على ميولهم الذاتية من أجل التنديد بالمعتقلات القائمة، ورغم ذلك، لم تغب عن ذهنهم تجربتهم السابقة. كما أن "بيير دي **Pierre Daix**"و"ماري كلود فايان كوتوربيه **Marie-Claude Vaillant-Couturier**"، ومعتقلون شيوعيون آخرون سابقون قدِموا للإدلاء بشهاداتهم أمام القضاء، رغم عدم نسيانهم للجحيم الذي عاشوه في معتقلات (موتهاوزن **Mau-thausen**)و(أوشويتز **Auschwitz**)، حيث بقيت صور المعتقلات حية في ذاكرتهم. وإذا كانوا قد تخلّوا عن فكرة النضال ضد الغولاغ [١] فذلك لا يعود لضعف في الذاكرة لديهم، إنما بسبب احترامهم لمبادئ منهجهم، كما صرّحت النائبة الشيوعية بذلك عندما رفضت الوقوف عند السؤال لأنها كانت على يقين "أن معسكرات الاعتقال لم تكن موجودة في الاتحاد السوفييتي[24]". ومن هنا، فلقد تحوّل هؤلاء المعتقلون القدماء إلى أنصار تيار النفي، الذي هو أشد خطراً من التيار الذي ينكر إلى يومنا هذا وجود غرف الإعدام بالغاز، ذلك لأن المعسكرات السوفييتية كانت آنذاك في أوجها، والتنديد بها جهراً كان الوسيلة الوحيدة لمقاومتها. ولم تكن ذكريات "بيير دي" أقل دقّة من ذكريات "دافيد روسيه"؛ وما يثير إعجابنا لدى هذين الشاهدين على العصر، هو أنهما كانا يدافعان عن الديمقراطية ضد الشمولية. ولا جدوى هنا من التساؤل عن أهمية معرفة كنه الماضي، حيث يأتي الجواب دوماً بالإيجاب. لكن الأمر

(١) وهو معسكر اعتقال السجناء السياسيين (المترجم).

يختلف بالنسبة للغايات التي نريد أن نحققها من إحيائنا لهذا الماضي، أما الحكم الذي نطلقه هنا فهو ناشئ عن اختيارنا لمجموعة من القيم وليس عن وفائنا للذكرى.

يعتبر التأكيد على الهوية بالنسبة لكل فرد فينا أمر شرعي بحت. ولن نشعر بالخجل عندما نفضّل ذوينا على الغرباء. إن درجة الألم التي ستشعر بها عند موت أناس غرباء عنك لا توازي الألم الذي سيعتصر قلبك عندما تقع أمك أو ابنك ضحايا العنف، وستعمل جاهداً على الاحتفاظ بذكراهم حيّة في أعماقك. ولكن عندما ينتقل اهتمامك من مصابك إلى المصيبة التي ألمّت بأقاربك، إلى الكارثة التي حلّت بالآخرين، عندها، ستشعر بالكرامة والوقار. لقد وجهنا السؤال إلى ذلك الكاتب المعروف "آندريه شوارز بارت **André Schwarz-Bart**"لماذا انتقل إلى عالم الزنوج العبيد بعد أن سرد واقعة الإبادة العنصرية لليهود في كتابه (المنصِف الأخير)؛ أجاب قائلاً: "سُئل أحد الحاخامات: لماذا صُنف طائر اللقلق، الذي يدعى (**Sic**) في اللغة العبرية، مع أنه طائر عاطفي (**Hassida**) ويحب عائلته، لماذا صُنِّف بالطائر القذر؟ أجاب: "لأنه لا يمنح حبه إلاّ لأفراد عائلته [25]".

وفي عام ١٩٥٧، قدّم الفرنسي "بول تيتجين **Paul Teitgen**"الذي كان يعمل كأمين سر في محافظة الجزائر العاصمة، قدّم استقالته من منصبه، حيث إنه كان أيضاً سجيناً في (داشو **Dachau**) (١). وقد أوعز سبب استقالته إلى رؤية آثار التعذيب على أجساد السجناء الجزائريين، والتي تتشابه مع تلك التي لا تزال تشوّه جسده عندما كان نزيلاً في أقبية الجستابو في مدينة نانسي سابقاً.

أما النحّات المميّز "جورج جانكلو **Georges Jeanclos**"فقد انغمس في جمع التبرعات حسب التقليد اليهودي، وكان يجد في هذا العمل مصدر إلهامه؛ إلاّ أنه وفي عام ١٩٦٠ قامت مجموعة النحاتين والتي أطلقت على نفسها اسم –هيروشيما– (أو **Galout**في العبرية والتي تعني المنفى أو الدمار) قامت بتجسيد مأساة قديمة في التاريخ. فبعد سفره إلى غواتيمالا، شعر (جانكلو) بآلام شعب هذا البلد، فقام

(١) المنفى الألماني (المترجم).

بنحت نموذجٍ مصغّرٍ ومؤثّر لمدينة غواتيمالا عام ١٩٨٢، يعبّر فيه عن معاناة وآلام البشرية. وفي العام نفسه، وكتعبيرٍ صادق عن مجزرة المخيمات الفلسطينية في صبرا وشاتيلا، قام بنحت تمثال نصفي لرجل يستند إليه جذع امرأة. وأثناء لقاء صحفي، قال "إنها المأساة نفسها تتكرر منذ مذبحة اليهود، ويستمر الوضع على حاله[26]".

عندما يقتصر هدفنا من إحياء طقوس الماضي، على تجسيد الصورة السلبية للآخرين أو صورتنا الإيجابية، فإن تأثيره يأتي ضعيفاً على تربية الشعوب؛ كما أنه يضلّنا ويصرف اهتمامنا عن الحالات الخطيرة القائمة في الحاضر، وفي الوقت نفسه يحيي ضمائرنا مقابل ثمن بخس. فالتكرار الوخاز لعبارة " لن يتكرر ذلك أبداً" التي شهدناها غداة الحرب العالمية الثانية، لم يمنع من قيام هذه الحرب. وعندما يتم تذكيرنا اليوم بالآلام البعض، وبأدق التفاصيل، ومقاومة البعض الآخر، فذلك يجعلنا حذرين تجاه هتلر والمشير "بيتان"(١)، كما يجعلنا نتجاهل ونغفل عن الأخطار الحالية - بما أن هذه الأخطار لا تخص نفس المجرمين ولا تأخذ نفس الأشكال. وعندما نندد بزلاّت قدم أحدهم تحت إمرة (فيشي Vichy)، فإننا نُظهِر الإنسان المتيقظ الحالي بصورة المقدام الذي يناضل من أجل الذكرى والعدالة، دون تعريضه لأية مجازفة أو إلزامه بتحمّل مسؤولياته في مواجهة البؤس والشقاء المعاصرَين. إن تخليد ذكرى ضحايا الأمس أمر يستحق المكافأة، أما الاهتمام بضحايا اليوم فهو أمر أكثر صعوبة.

ويتناهى إلى مسامعنا اليوم أن للذكرى حقوق لا تسقط بالتقادم، وأنه علينا أن نجاهد لإحيائها. يجب أن ندرك أن هذه الدعوات والنداءات ضد النسيان ليست في أغلب الأحيان من أجل تغطية أحداث الماضي، ولا من أجل ترتيب وتفسير وقائعه (حيث لا يوجد أحد ولا شيء في بلد ديمقراطي مثل دول أوروبا الغربية، يمنع من إنجاز هذا العمل)، إنما تأتي هذه النداءات من أجل غاية أخرى مختلفة تماماً ألا وهي اختيار وقائع معينة بين مجموعة من أجل إظهار دور البطولة لروادها، أو

(١) الذي بدأ كقائد للجيش الفرنسي ثم ترفّع إلى وزير للحربية ثم إلى سفير فرئيس الدولة الفرنسية، إنه من وقّع الهدنة مع ألمانيا (المترجم).

الضحية أو الباحث في علم الأخلاق، تاركين في الظلام الوقائع الأخرى الأقل أهمية والتي لا تظهرهم في الأدوار التي يستحقون عليها المكافآت. من أجل هذا السبب يجب الاحتراس من الوقوع في "فخ واجب إحياء الذاكرة" حسب أقوال "بول ريكور ur–Paul Ric"[27] ونفضّل عليها آلية الذاكرة.

فإذا لم نشأ إحياء الماضي، فلا يكفي سرد وقائعه. فمن لا يعرف العبارة البالية للفيلسوف الأميركي "جورج سانتايانا George Santayana"[28]، التي تقول: إن "من ينسى الماضي سوف يكرر أحداثه"؟ فهذه الحكمة العامة إما أنها خاطئة أو أنها خالية من أي معنى. فليس للماضي التاريخي أو لترتيب الطبيعة معنى بحد ذاته، كما أن لا قيمة له؛ فقيمة هذا الماضي بأحداثه تأتي من البشر الذين يبحثون فيه ويقيّمونه. ولقد رأينا سابقاً كيف أن الحدث نفسه، يحتمل تفسيرات متناقضة، ويمكن أن يبرر سياسات مختلفة ومتصارعة فيما بينها.

يسهم الماضي بإعداد الهوية الفردية أو الجماعية، كما يسهم بتأهيل قيمنا ومثلنا العليا ومبادئنا – شريطة قبولنا أن تخضع هذه لفحص العقل وللنقاش بدل أن تفرض علينا لأنها ملكنا. إن ارتباطنا بالقيم هو أمر جوهري؛ وهو في الوقت نفسه، محدود. يستطيع الماضي أن يغذّي مبادئ تصرفاتنا في الحاضر؛ إلاّ أنه لا يوضّح لنا معنى الحاضر. فالعنصرية، وكره الأجانب، وحوادث النفي التي تصيب الآخرين اليوم لا تتطابق مع هذه الأفكار التي سادت قبل خمسين عاماً أو قبل قرن أو حتى قرنين من الزمن. فهي تختلف بأشكالها وضحاياها على حد سواء. إن تقديسنا للماضي يسلبه الفعالية ويمنعنا من الاستفادة منه في الحاضر؛ أما تشبيهنا البسيط للحاضر بالماضي، فإنه يعمي بصيرتنا ويمنعنا من رؤية الاثنين متسببين بالظلم والجور. يبدو الطريق ضيقاً بين تقديس الماضي وتدنيسه، بين خدمة مصلحتنا الخاصة ووعظ الآخرين؛ ولكن هذا موجود.

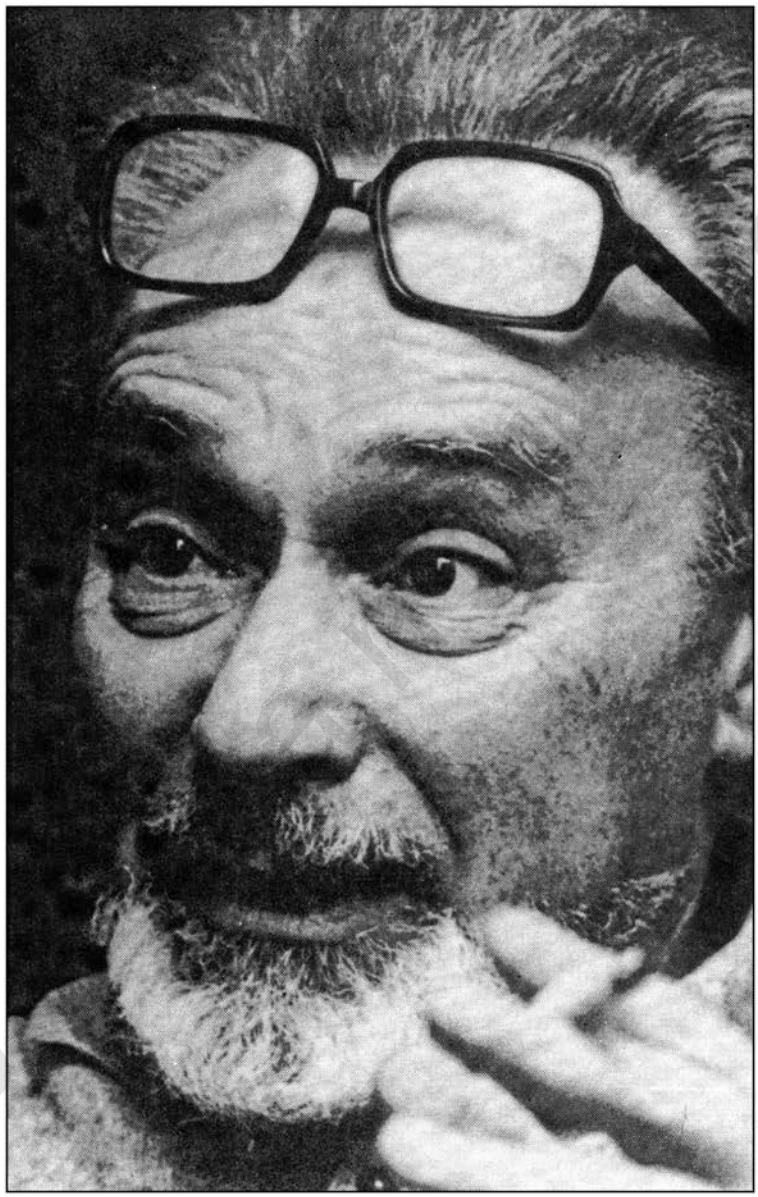

بريمو ليفي في عام ١٩٨٥

أثناء تأليفه "الغارقون والناجون"

obeikandl.com

القرن كما يراه بريمو ليفي
Primo Levi

لقد باءت محاولات النازيين لإخفاء جرائمهم الشنيعة التي نفّذوها داخل معسكرات الاعتقال، وجرائم الإبادة العنصرية، بالفشل الذريع؛ فهناك كما قلت سابقاً، القليل من الأحداث التاريخية المعاصرة التي تمّ توثيقها بشكلٍ جيد، وهذه واحدة منها. لقد نصّب أولئك الذين خرجوا أحياءً من المعتقلات أنفسهم كمسؤولين عن القيام بمهمة محددة، ألا وهي الإدلاء بشهاداتهم، ولم يتوانوا عن فعل ذلك، بعضهم حكى معاناته مباشرة لدى خروجه من المعتقل، أما البعض الآخر فقد حافظ على صمته مدة أربعين بل خمسين عاماً، ثم قرر الإدلاء بشهادته. وجاءت كل هذه الشهادات معبّرة، بل إنها غالباً ما كانت غنية بالمعاني. لقد حقق أحد هؤلاء الشهود شهرة كبيرة وذاع صيته على الصعيد العالمي، إنه "بريمو ليفي **Primo Levi**".

ولد هذا اليهودي من أصل إيطالي عام ١٩١٩، وتم اعتقاله في شباط ١٩٤٤ ليساق إلى معتقل أوشويتز، خرج منه بعد عام، ولكن بحالة صحية متردّية. أول كتاب صدر له كان يحمل عنوان (لو كان رجلاً) عام ١٩٤٧، نُشر في إيطاليا، وقد أورد فيه شهادته عن المعتقل، ولم يثر هذا الكتاب أية ضجة في حينه. وفي الأعوام التي تلته، عمل "ليفي" بجدٍ في مجال الكيمياء والتأليف (على غرار غروسمان، مع فارق بسيط، أنه عمل طيلة حياته)؛ أثارت بعض من مؤلفاته موضوع تجاربه الشخصية داخل المعتقل، فتحدّث في كتابه (الهدنة) عن قصة خروجه منه؛ وفي روايته (الآن أو مطلقاً) كان يحكي عن مقاومة اليهود؛ وقام بوصف طبيعة الحياة داخل المعتقل في بعض الأجزاء من مؤلفه (النظام الدوري)؛ كما ألفّ الروايات القصيرة. وتمضي السنون، وتأتي شهادته الأولى كمرجع؛ وما إن يبلغ سن التقاعد حتى يجد نفسه مضطراً للعودة أكثر فأكثر، إلى تجربته في المعتقل، وذلك من خلال لقاءات عديدة، ثم من خلال كتاب التأملات الذي ألفّه تحت عنوان (الغارقون والناجون). مات "ليفي" عام ١٩٨٧.

تشكل شخصية "بريمو ليفي" موضع اهتمام وإعجاب الكل في يومنا هذا حتى أوشك أن يتحوّل إلى إيقونة – وهذه نتيجة لم يكن ليرضى بها. لقد أثارت مؤلفاته ومصيره تفسيرات عديدة- وكنت أنا من بين الذين كتبوا عنه[1]، وأريد هنا أن أتناول مسألة واحدة كانت شغله الشاغل في حديثه عن المعتقلات، مسألة هامة ومركزية، ألا وهي ممارسة الشر ضد البشرية.

يمكن تلخيص الموقف الذي اتخذه "ليفي" إزاء القائمين على التخطيط لتنفيذ الأعمال المروعة بأنه رفضٌ للصفح، وللثأر، ومطالبة بإقامة ميزان العدل. فلقد كتب بخصوص موضوع عدم الصفح: "ليس في نيتي أن أسامح، ولم يسبق لي أن عفوت قط عن أحد من أعدائنا، كما أني لست مستعداً للعفو عمن يحذو حذوهم [...] لأني لا أعرف بوجود أعمال إنسانية يمكن أن تسمح بالأخطاء". وكتب في موضوع الثأر:"لم يكن الانتقام يثيرني؛ [...]لقد راقني وجود آخرين غيري، أناس مختصين بالمهمة، ينفّذون أحكام الإعدام شنقاً لإقامة العدالة [2]". فما هي دوافع هذا الخيار؟

بادئ الأمر، لا يمكننا أن نصفح إلاّ عن أمور عانينا منها شخصياً، فكيف أمنح نفسي الحق بالعفو عن آلام تحملها غيري من البشر؟ لهذا السبب، تعتبر جريمة القتل أو الإبادة الجماعية جريمة ضد الأمة- وبالتالي لا يمكن الصفح عنها. يمكن لأقارب الضحية أن يتوقفوا عن تغذية حقدهم ضد الجاني، فالأمر منوط بهم شخصياً؛ علماً أنهم لا يمكن أن يحلوا مكان الضحية. يُهَيأ لنا أن الصفح يعود بالفائدة على من يمنحه، لكي يتابع العيش بسلام؛ ولكننا لا نملك حق فرضه على الأمة. أما العفو القانوني، أو العفو العام، فلا يمكن القبول به إذا صدر قبل الحكم، وكان متعلقاً بأعمال خطيرة مثل جرائم القتل، أو ممارسة أشكال التعذيب، أو النفي، أو استعباد الأحرار؛ عندئذٍ نكون قد ضحينا بفكرة العدالة في مقابل عوامل أكثر أهمية، كسلامة الأمة. فالعفو هو خيار شخصي، في حين أن جريمة القتل تتجاوز الإطار الخاص. فالخطيئة، والإهانة، والجريمة لم تُصبِ الضحية بمفردها، إنما حطّمت، أو في كل الأحوال، تسببت في انتشار الفوضى والاضطراب في النظام الاجتماعي الذي يطالب بإقامة العدالة أو التعويض. عندما يبادر شخص ما بالعفو

عن آخر، فهو في قرارة نفسه نزع الغل من أعماقه تجاه من تسبب بإيذائه؛ وهذا لا يُصلِح الضرر الذي أصاب المجتمع.

أما موضوع الانتقام فهو أيضاً مثيرٌ للجدل. يقول "ليفي": إن الانتقام لا يُصلِح شيئاً، إننا بهذه الوسيلة نضيف عنفاً إلى عنف آخر قد سبقه؛ ولكن هذه الإضافة لا توقف أعمال العنف، إنما تهيئ لحدوث انفجارات مستقبلية. "فالعنف لا يولّد سوى عنف مثله، بحركة نواسية تزداد اتساعاً مع الزمن بدلاً من أن تضمحل وتتلاشى [3]". والأمثلة كثيرة كما رأينا.

إن فرض العقوبة على أعمال الشر ليس هو الموضوع الأهم الذي يتعلّق به، فما يشغل "ليفي" هو تقييم هذا العمل والحكم عليه. في روايته (الغارقون والناجون) وفي الفصل الذي يلي مباشرة "ذاكرة الإهانة"، هناك فصل أطلق عليه اسم "المنطقة الرمادية". هذا التعبير الذي أوجده "ليفي"، يضم أولئك الذين لا يدخلون في مضمار "المعتقلين" أو "الحرّاس".

ففي إدارة دولة المعتقلات (**Lager**) كما هو الأمر بالنسبة للغولاغ، حرص الحرّاس من ذوي المراكز العليا في المخابرات السرية أو البوليس السياسي السوفييتي، على طلب الدعم من بين صفوف المعتقلين، و آثروهم على غيرهم من مجموع المعتقلين، لكنهم مع ذلك، أبقوهم في مرتبة أدنى منهم، فهؤلاء "الكابو **Kapos**"يتم اختيارهم وتعيينهم من بين مجرمي الحق العام، إنهم فنيّون أو أطباء، عمالٌ مختصون أو مكلفون بمهمات خاصة. وكان "ليفي" من ضمنهم، حيث استطاع أن يبقى على قيد الحياة بفضل اختصاصه ككيميائي، وليس كيد عاملة بدون مؤهلات. هؤلاء الأفراد ينتمون في آنٍ واحد، إلى فئة المعتقلين وفئة المميَّزين، مع فارق كبير بينهما.

و يستخدم "ليفي" عبارة "المنطقة الرمادية" على نطاق أوسع. فهو يروي لنا أن هناك عنصراً من المخابرات السرية، معروف عنه أنه عديم الرحمة وعديم الشفقة، قد راوده ذات يوم شعور بالتعاطف تجاه إحدى الضحايا، "وكانت لحظة وحيدة لم تتكرر، ما لبثت أن تلاشت بالسرعة نفسها التي ظهرت فيها، ولم تكفِ لتبرئة

(موشفيلد **Mushfeld**) إنما اكتفت بتنحيته إلى أقصى الهامش، إلى تلك المنطقة الرمادية[4]". ومن ناحية أخرى، فإن أولئك الذين يحافظون على ترتيبهم كسجناء لا يتوانون عن القيام بأعمال تضرّ وتؤذي من حولهم، معربين بذلك عن أنانيتهم، فهم أيضاً ينتمون إلى "المنطقة الرمادية"، مع أنهم من الطرف الآخر منها. وبعبارة أخرى، تتضمّن هذه المنطقة، بشكل جزئي على الأقل، جميع نزلاء المعتقل. لقد التزم "ليفي" في نضاله ضد المانوية، وهو متعلّق بهذا المفهوم أكثر من أي شيء آخر. وحول كتابه (الغارقون والناجون)، يعلّق خلال لقاء أُجري معه قائلا: ["إن أهم فصل في هذا الكتاب ذلك الذي يحمل عنوان "المنطقة الرمادية[5]"] والذين يختلفون معه في الرأي، يعرفون أن هذه هي النقطة الحساسة في تفكيره والتي يستطيعون أن يجادلوه من خلالها..

يتحتّم علينا وعلى الفور في هذا السياق، إزالة الالتباس الذي قد يرد إلى الأذهان. فغالباً ما يرمي ليفي إلى أمر، دون الإفصاح عنه، ألا وهو ضرورة تحديد الأعمال البشرية بالنسبة للتاريخ، ودراستها، سواء على الصعيد القانوني أوعلى مستوى علم الإنسان (أو النفسي)؛ ولا ينبغي أبداً تفضيل أي من هذه المستويات على حساب الآخر. وحسب ما جاء في أقواله: "لا أريد أن أقول: إننا كلنا سواسية. لأننا لسنا كذلك أمام الله (جلّ حلاله) وهنا يقصد المؤمنين، أما بالنسبة لغير المؤمنين، فهم ليسوا متساوين أمام العدالة. إذاً لسنا متساوين، فذنوبنا تتفاوت من حيث درجاتها. ولكننا خلقنا من طينة واحدة [6]".

فمن وجهة النظر القانونية، يُفترض اعتبار الإنسان ككائن حر، وبالتالي، تحميله مسؤولية تصرفاته. لذلك فالخلط بين الجلادين والضحايا أمر مرفوض تماماً. ويثور "ليفي" بحدة ضد أولئك الذين يخلطون بين هذه الأدوار، كما هو شأن المخرجة السينمائية "ليليانا كافاني **Liliana Cavani**"، مؤلفة فيلم (حارس الليل) الذي أثار الجدل، حيث ادّعت فيه وصف الحياة داخل المعتقلات. وها هو ينقل كلمات المخرجة: "كلنا إما ضحايا أو سفاحون، ولقد وافقنا بملء إرادتنا على لعب هذه الأدوار". ويعترض على كلامها قائلاً: "لست أدري [...] إذا كان ثمة قاتلٍ قابعاً في أعماقي، ولكنني علي يقين أنني كنت ضحية دون ذنب اقترفته، بالتالي فأنا لست قاتلاً؛ إني

أعرف أن القتلة موجودون [...]ولكن أن يتم المزج بينهم وبين ضحاياهم، فهذا يعتبر مرض نفسي، أو أنه تأنق جمالي، أو نذير تواطؤ مروِّع .[7]"

وفي الوقت نفسه، يثور ليفي ضد الذين يتهمون المجرمين بتجسيد الشر المطلق. ففي الفيلم الإيطالي الذي أخرجه "بازوليني **Pasolini**"بعنوان (١٢٠ يوم لسودوم(١)). يمزج هذا الفيلم قصة جمهورية موسوليني بذكريات ساد الماضية، وهذا يثير ردة فعل "ليفي" السلبية، فيقول: " لم ينل هذا الفيلم إعجابي قط، إنه نتاج رجل يائس. [...] لم تكن الأمور على هذا الشكل. كما أن هذه الشراسة المطلقة لم تكن موجودة. نعم، كانت المنطقة الرمادية متسعة الأبعاد، نعم، كانت تضم كل شيء تقريباً، كان لوننا كلنا آنذاك رمادياً". لم يكن هناك أسود كامل ولا أبيض كامل:"مما لا شك فيه، أنه بإمكان كل فرد فينا أن يصبح وحشاً في أعماقه[8]" . ولا يمكن توزيع البشر بين فئتين منفصلتين تماماً، فئة الملائكة و فئة الشياطين؛ فإثبات الحالة هذا لا يخفف أبداً من سواد الجرائم التي ارتكبت. يبدو رأي "ليفي" في هذين الفيلمين المعاصرين للوهلة الأولى متناقضاً ولكنه ليس كذلك في الحقيقة؛ إذ لا يمكن القبول بالتطرّف الموجود في كل منهما، فالكل رمادي على نسق واحد، ولا يوجد مطلقاً منطقة رمادية.

من خلال هذا السياق، نستطيع أن ندرك سبب الاختلاف الموجود بين "ليفي" من جهة، وبين مؤلفين آخرين وأناس مشهورين عاشوا في قرننا، ويثيرون بانتظام في حديثهم موضوع هذه الكارثة الحديثة أو تلك. فإلى جانب هؤلاء اللعّانين ذوي الأصوات المدوّية والذين ينتزعون من المآثر والمصائب والجرائم التي عايشها شعبهم اليقين بأنهم على حق، يظهر "ليفي" من بينهم على أنه مجسِّد للذل، فهو لا يزمجر ولكنه يهمس، وقد قال عن نفسه[9] في أثناء لقاء أجري معه: ("لا أحب التكلّم بصوت عالٍ")؛ إنه يزن ما للأمر وما عليه، ويذكِّر بالحالات الاستثنائية، ويفتش عن أسباب ردود أفعاله، و لا يقدم تفسيرات مدوّية لوقائع الماضي، كما أنه لا يقلّد نبرات صوت الرسول ليوحي بقدسيته؛ وعندما يجد نفسه أمام موقف متطرّف، فإنه يعرف كيف يحافظ على إنسانيته. أما عندما يثير موضوع الشر الذي هو مصدر الإهانة، فذلك

(١) وهو اسم لمدينة فلسطينية قديمة بالقرب من البحر الميت، دُمّرت بسبب فسق أهلها (المترجم).

لا ليوجه إصبع الاتهام نحو منفّذيه، ولكن ليمعن النظر في داخله و ليتقصّى الأسباب دون رحمة.

في روايته (الغارقون والناجون)، يحكي"ليفي" بالتفصيل قصة "شاييم رومكويسكي **Chaïm Rumkowski**"، رئيس حيّ اللودز اليهودي المنعزل. لقد انتشى (رومكويسكي) من مجد السلطة التافه الذي منحه إياه الألمان، وأخذ يتصرّف كسلطان- مما أثار السخرية لدى سكان هذا الحي الذي كان يعاني من شروط حياة قاسية، نظراً لتفاهة هذا السلطان. ولكن بدلاً من إبداء سخريته أو غضبه، انغمس "ليفي" في حالة من التأمل لهذا الوضع، ولآثار السلطة المفسِدة على من يمارسها. ولم يصمد "رومكويسكي" طويلاً. ترى لو كنا مكانه، فهل سيكون موقفنا أقوى منه؟ "وكيف سيتصرّف كل واحد فينا فيما لو كان الدافع هو الحاجة، وقد استهواه المنصب وأغراه؟" فمأساة "رومكويسكي" هي مأساتنا". إن السلطة والنفوذ يؤثران علينا ويبهراننا، لدرجة تجعلنا ننسى أننا مجبولون على الضعف، إننا نتعاهد مع السلطة طوعاً أو كرهاً، ناسين أننا نحيا وسط هذا الحي المنعزل [...]وأن القطار ينتظرنا هناك، عند زاوية المنعطف [10]".

ونقلّب صفحات الكتاب لنجد "ليفي" يحكي لنا واقعة حصلت معه شخصياً: ذات يوم كان يعاني فيه من شدة العطش، وجد قليلاً من الماء فشربه مع سجين آخر كان بالقرب منه، ولكنه لم يشرك الآخرين. وعندما فكر ملياً في تصرفه الذي ينم عن الأنانية، لم يحاول أن يحمّل نفسه ذنباً، فأي شخص مكانه كان سيتصرّف مثله، ومع ذلك فهو لم يلحِق الأذى بأحد من جراء تصرفه هذا، أي أنه لم يتسبب بمقتل أحد. غير أن هذه الحادثة التافهة كانت كافية لإثارة "شيء من الشك" في قرارة نفسه، فكل إنسانٍ فينا هو قابيل تجاه أخيه، و كل واحد فينا [...]قام بتنحية أخيه من أجل احتلال مكانه[11]".

تبدو هذه النتيجة مخيفة بالنسبة لأي إنسان يحركه الضمير الخلقي. ألا يوجد أي حاجز بيننا وبين الشر؟ إنه منتشر على نطاق واسع؛ ولا يسلم منه أحد، إن تقارب هاتين الفكرتين جدير بالتأثير سلباً على أقوى إرادة في العالم وقيادتها إلى هاوية

اليأس. ولكن هل الشر الذي نتكلم عنه هو واحد في كل مكان؟ تفحّص ليفي بتمعّن وقلق المكان الذي يمكن أن يجد فيه شرخاً يمكن له الدخول من خلاله؛ إنه مهتم بالإجابة عن هذا السؤال ليس فقط على الصعيد المعنوي، إنما أيضاً من أجل تماسك شخصيته. يمكن صياغة هذا المأزق بالشكل التالي: إما أن الشر متأصل فينا و هو موجود ويشكّل هدفاً نسعى إليه، ونمارسه خدمةً للشيطان، كما يقول المسيحيون؛ إنه ذلك الشر الذي يدفع بالإنسان إلى تمزيق جسد الطفل إلى قطع صغيرة من أجل تعذيبه حتى يأتيه الموت؛ هذا الشر الجذري غير معروف بالنسبة للكل. أو أن هناك شراً مألوفاً، مبتذلاً ومشتركاً، و ينشأ عن إيثار أنفسنا على الغير، كما في موقف قابيل من أخيه هابيل؛ ففي بعض الظروف القصوى – مثل الحروب، واستبداد نظام الشمولية، وهيمنة النظام العسكري، والكوارث– ينجم عن هذا النوع من الشر نتائج غريبة. وهنا لم تعد فرضية وجود الشيطان ضرورية.

لقد خصص "ليفي" جزءاً كاملاً لهذه المسألة في كتابه (الغارقون والناجون) تحت عنوان "العنف عديم الفائدة"، وجدت هذه العبارة صداها عند "غروسمان" في كتابه (الجحيم في تريبلينكا)، "الوحشية اللامنطقية [12]". إذ من السهل ملاحظة العنف "الضروري"، فإذا عجز إنسان ما عن إدراك غايته بالطرق السلمية، وأحس بالثقة تعتمره، فإنه يلجأ إلى القوة. الشر في هذه الحالة ليس سوى وسيلة عنيفة، وطريق مختصرة ومريحة لبلوغ الخير– خير الفرد أو الجماعة. وفي عالم المعتقلات، لاحظ "ليفي" أيضاً مجموعة من التصرفات تنم عن ممارسة العنف "عديم الفائدة": فلماذا لا يتم وضع مراحيض في العربات المخصّصة للحيوانات التي كانت تنقل السجناء إلى معسكرات الاعتقال، و لا حتى نقطة ماء واحدة للشرب؟ لماذا تفرض التعرية على السجناء ؟ لماذا كانوا يُحرمون من استخدام الملاعق حتى يجدوا أنفسهم مضطرين إلى لعق الحساء كالكلاب؟ لماذا كان يأخذ النداء على أسماء المعتقلين الساعات الطويلة في العراء؟ لماذا كان يُفرض عليهم ترتيب "أسرّتهم" وإعادة ترتيبها للوصول إلى درجة الكمال؟ لماذا كان يتم إحضار من هم في حالة النزاع، وفي الرمق الأخير إلى المعسكرات، علماً أنه لم يبقَ على مفارقتهم للحياة إلاّ ساعات معدودة؟

لماذا كان يُفرض على المعتقلين القيام بأعمال عديمة الجدوى؟ لماذا كان يتم اعتبار البشر مجرد خزانات للمواد الأولية، والمعادن، والليف، والفوسفات، في حين أنهم لو كانوا أحياءً لأنتجوا خيراً من كل هذا؟

إننا ندرك الرهان على هذا السؤال الذي أثرتُهُ فيما سبق، عندما تكلمت عن المنطق في ممارسة أعمال الشر؛ فإذا توصلنا إلى إثبات عدم جدوى هذا العنف، اختلف مفهوم الشر بالنسبة لنا بصورة جذرية عما هو مألوف لدينا حتى الآن، وارتفع جدار بيننا وبينه؛ وإلاّ أوشكنا أن نجده داخل كل فرد فينا. تردد "ليفي" قبل أن يجيب عن هذا السؤال ولم يبتَّ فيه. ولكنه في كل مرة، من شدة إمعانه النظر وتدقيقه في كتابته، يجد نفسه يقول: "إن التصرف الذي يبدو لنا للوهلة الأولى عديم الفائدة، نجده منطقياً في مكان آخر". فتجريد السجناء من إنسانيتهم هو أمر منطقي في الحقيقة، حيث أنه قد تمّ اعتبارهم في درجة أدنى من البشر. أن نجعل عدونا يعاني من الألم هو أمر منطقي، إننا بذلك ندعم قوتنا وتفوقنا عليه. أن نفرض الطاعة لأوامر منافية للعقل أمر منطقي، لأن ذلك يبرهن أن الخنوع لا يحتاج لتقديم مبررات. أن نظهر تفوّق قوتنا أمر منطقي، فغاية العملية هي الوصول إلى التفوّق المطلق. باختصار، إذا فرضنا أن اهتمامنا بتأمين الخير لأنفسنا هو أمر منطقي ونافع، فلمَ الدهشة إذاً عندما يسيطر علينا الشعور بالنشوة من الأذى الذي نلحقه بالآخرين؟ ".

يحب "ليفي" أن يكرر على مسامعنا بيت الشعر الشهير لـ "جون دون **John Donne**" الذي يقول فيه: "إن الإنسان ليس جزيرة نائية"، فما يحصل مع الآخرين يعنينا مباشرة. هذه الحقيقة تجد تطبيقاً شنيعاً لها، حيث يتوصل الفرد إلى إثبات وجوده عندما يحط من شأن الآخرين أو عندما يذيقهم الآلام، أو على العكس عندما يرفع من شأنهم أو يدخل السرور إلى قلوبهم. إننا كبشر نشكل كلاً، بينما يأتي تقييم الأفراد بشكل نسبي، حيث أن عدم كفاءة أحدهم تسبب عظمة الآخر. والاطلاع على فاجعة يساهم في إدخال السعادة على من يشاهدها من بعيد - إلاّ في حال ألمّت هذه الفاجعة بعائلته، أو أحد أقاربه، حينئذٍ يصبح الألم مشتركاً. وهكذا فالخير

والشر ينبعان من مصدر واحد، كما قال "روسو": إنه الاستمرار بين "الأنا" و "الغير"، بين "نحن" و"الآخرين"؛ فإننا نفرح لفرح الآخرين ونشقى لشقائهم للسبب نفسه، حيث إنهم متصلون بنا. الاختلاف الوحيد يكمن في طبيعة العلاقة التي اختار الفرد أن يقيمها مع من يحيطون به، فيسعده شقاؤهم عندما يقارن نفسه بهم، مع بقائه غريباً عنهم؛ وكذلك الأمر بالنسبة لسعادتهم، عندما يجد فيهم امتداداً له. ويشقى لمصيبتهم بقربه منهم؛ ويغتبط لفرحهم لأنه شبيه بهم.

هل هناك أمل لتغيير هذا الحال؟ وماذا بوسعنا أن نفعل للإسهام في هذا التغيير؟ تعقيباً على موقف "جان أميري **Jean Améry**"، سجين سابق أصبح مؤلّفاً فيما بعد، ولكنه بخلاف "ليفي"، اختار طريق "إعادة تصويب الضربات"، كتب ليفي يقول: "إن الذي يصوب ضرباته ضد العالم أجمع [..] لديه الثقة بجني الهزيمة[14]". ولقد رأينا أن ليفي قد اختار شخصياً طريقاً مختلفاً، طريق العقل والنقاش؛ أما من يقاتل العالم كله عن طريق إيجاد الحجج والبراهين، هل يمكن له تحقيق النجاح؟ إننا نستطيع، بل يجب علينا متابعة المقاومة، ولكننا لن نضمن النجاح. يمكن أن نلقى كل الطرق مسدودة؛ مما جعل السجينة السابقة "ليانا ميلو **Liana Millu**"التي كانت تجمعها صداقة مع "ليفي"، تدرك سبب تفاقم الحزن في نظراتها مع مرور السنين داخل معتقل (بيركينو **Birkenau**) فكان كتاب "ليفي" الأول (لو كان رجلاً) شاهداً على ألم من نوع خاص؛ أما كتابه الأخير (الغارقون والناجون) فقد أثبت فيه أن الألم قد تسلل بطريقة ماكرة في كل مكان من العالم.

ونتساءل مجدداً، هل يواجه البشر اليوم الشقاء نفسه الذي لاقاه أجدادهم بالأمس؟ إن أحداث التاريخ فريدة وتكرارها أمر مستحيل؛ أمَّا ذكرى الجرائم التي حصلت في أوروبا، فقد حالت دون تكرارها، على الأقل لمدة جيل كامل. وهذا يُعَزّي "ليفي" بشكل ضعيف. حيث تلبس الجريمة التالية حلّة مختلفة تجعل من المتعذّر الكشف عنها، وتمضي اللعبة. فما أن تقع هذه الجريمة تحت ستار الوطنية أو التعصّب الديني بدلاً من الفاشية حتى يتلاشى قلقنا. وينتاب "ليفي" الشك. فتجربة أوشويتز لم تفد في شيء، ويتابع تاريخ البشرية المنهِك مجراه.

وتتوالى المجازر الكبرى، حتى خارج نطاق أوروبا. فبين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٩ قام النظام الشيوعي لـ (بول بوت) في كمبوديا بإبادة كل المناهضين للنظام الذين يرفضون مشروع ابتكار نوع جديد من البشر، وقد تعذّر إحصاء عدد الضحايا إلاّ أنه قارب المليون والنصف، أي بنسبة ضحية واحدة لكل سبعة أشخاص من مجموع السكان. كان ليفي على يقين أن الموضوع هو إبادة جماعية: "إنها غلطتنا، لأننا لا نعرف إلاّ القليل عن الموضوع. إنها غلطتنا لأنه كان علينا أن نطالع أكثر وأن نلم بالموضوع بشكل أوسع. [...] إنها غلطتنا لأننا لم نبذل أي جهد بسبب الخمول الذهني الذي تغلّب علينا و حرصنا على راحتنا [15]".

في شهر نيسان من عام ١٩٩٤، أي بعد مضي خمسين سنة على المعتقل الألماني أوشويتز، و سبع سنوات على موت "ليفي"، بدأت الإبادة الجماعية في راوندا، فكانت عملية إفناء لشعب (التسوتسيس **Tsutsis**) على يد (الهوتوس **Hutus**)، والتي أسفرت عن مقتل مئات الآلاف من البشر. وأثناء إدلائها بالشهادة، قالت "يولاند موكاغاسانا **Yollande Mukagasana**"بعد وصفها للمجزرة التي طالت أفراد عائلتها:"ليعتبر نفسه متواطئاً في الإبادة الجماعية في راوندا كل من لا يقوى على قراءة السطور [..]وكل من يرفض التعرّف على محنة الشعب الراوندي يعتبر نفسه متواطئاً مع الجلادين. فلن يقلع العالم عن ممارسة العنف إلاّ إذا أعاد النظر في دراسة حاجته للعنف [16]". وهذا لا يتطلّب منا الكثير، لا أن نتحوّل إلى محبين للعدل، ولا أن نناصر أحد الأطراف على حساب الآخر، المطلوب فقط أن نكلّف أنفسنا عناء المطالعة والاستماع. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فأشكال الشر المتطرّف شائعة، وأشكال الشر الاعتيادي منتشرة. والنضال العالمي وحده ليس مستحيلاً، بل التعاطف العالمي أيضاً، ويستثنى من هذا التعميم القديسين فقط، فقد كتب ليفي: "لو اضطررنا وكان بمقدورنا تحمّل آلام جميع البشر لما استطعنا متابعة حياتنا". فمن ينزع إلى اتباع نهج القديسين يوشك أن يفقد حياته. وللحفاظ عليها فإننا نوجّه تعاطفنا تبعاً للظروف، حيث نتحسّر على البعض ونتغافل عن الآخرين.

إنها حقيقة من نوع خاص يصعب على "ليفي" تقبلها. لقد تعلّم خلال السنوات الأربعين التي أمضاها في التأمل والتفكير في العبر والدروس التي استخلصها من معتقل أوشويتز، أنه وبالإضافة إلى الجرم المباشر لأفراد معينين، فإن المسؤول الأهم عن الكارثة الإنسانية هما اللامبالاة والسلبية الصادرة عن الشعب الألماني، الذي آثر في مجموعه، وفيما عدا بعض الحالات الاستثنائية، الحفاظ على جهله طالما سمح له الوضع بذلك؛ ثم تبنّى موقف السلبية. فكيف نفسّر اليوم الجهل الذي اخترنا بملء إرادتنا أن ننغمس فيه، وكيف نفسّر اختيارنا للخمول، ألسنا متواطئين مع النكبات الجديدة المختلفة بشكلها الخارجي و المؤلمة في حقيقتها؟ إن التمييز بين القوة والفعل لم يعد يجدي في هذا الموقف. فإذا اهتممنا فقط بمحيط عائلتنا وأقاربنا، قد نقطف ثمار هذا التدخل الإيجابي؛ ولكننا بذلك نحذو حذو الألمان خلال سنوات الحرب. أما إذا قررنا أن تمتد ردود أفعالنا لتطال البلد بأكمله، أو حتى البشرية جمعاء، فكيف نتجنّب عندئذٍ إحساسنا بالفشل؟

يبدو أننا أمام خيار محدود: إما أن نختار شعورنا بالجرم أو شعورنا باليأس، خيار قد يودي بنا إلى العدول عن الحياة. إني أعتقد أنه علينا الامتناع عن تحميل "ليفي" مسؤولية موته. فهناك الكثير من الشخصيات المرموقة ممن خرجوا أحياءً من المعتقل قد أنهوا حياتهم بالانتحار، ويعتبر هؤلاء من ضحايا أوشويتز المتأخرين؛ أما أسباب موت "ليفي" فيكتنفها الغموض. لقد أكد عدة نقّاد، من بينهم أصدقاء مقربين منه، أن موته لم يأتِ نتيجة انتحار. فهو لم يترك أية رسالة بهذا المعنى، ولم يوحِ في يوم إلى أصدقائه نيته بالانتحار. ولا نستبعد أن موته قد نتج عن حادث في بيت الدرج - فهو لم يقفز منه بالتأكيد، ولكن ربما فقد توازنه، فوقع. فلو أراد الانتحار، فهل كان سيختار هذه الطريقة غير المضمونة، وهو العالِم الكيميائي؟ لا يمكننا نفي الشك بشكل مطلق، ولكن إذا فرضنا أن موته كان انتحاراً فلا يوجد ما يثبت أن هذا الأمر له صلة بتجربته في المعتقل. وما هو حتمي أن انتحاره لا يشكّل النهاية المنطقية لطريقة تفكيره.

إن العبرة التي استخلصها "ليفي" من تأملاته تدعو إلى الإحباط، غير أن القارئ لمؤلفاته يخرج منها أقوى مما كان عليه. فأين المعجزة في ذلك؟ إن النور ينبعث من

طريقة تحليله لتأملاته، فهو لا يلجأ للصياح أو للنداء المدوّي، إنما يختار كلماته بدقة متناهية لتأتي واضحة ومعبّرة في آنٍ واحد، كما أنه لا يقبل إلاّ بالحجج المنطقية، واضعاً نصب عينيه إظهار الحقيقة وإقامة العدالة قبل الراحة الفكرية. إن شعاع الضوء لا ينبع من العالم الذي وصفه "ليفي" وحلله، إنما ينبع من داخله، إن ما يثير الشجاعة والحماس لدى الآخرين هو أن يكون أناس قد عاشوا مثله على هذه الأرض، وعرفوا الصمود أمام عدوى الشر. هذا ما يشكّل بدوره مصدر تشجيع للآخرين. "بريمو ليفي" أو المناضل اليائس، كلا التعبيرين يملكان الأهمية نفسها. لقد رفض التوقف عند النتائج المرّة التي فرضت عليه، مما جعلنا نقدّره حق قدره إلى يومنا هذا.

obeikandl.com